

## ١٣- مَكَّةُ الْمَكْرَمَةِ

جاء في القرآن الكريم ان ابراهيم طلب اليه تعالى ان يجعل البلد الذي نزل فيه آمناً، ثم رفع اليه عز وجل ضراعة بقوله: «ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل افئدة الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون».

وقد اختار الله تعالى رسوله ﷺ من أهل هذا البيت الذي بمكة، وبذلك جعله مهوى افئدة من مشارق الأرض ومغاربها. فكل مسلم يأمل أن يتاح له في يوم من الأيام ان يزور الكعبة المشرفة والبيت الحرام. والتعبير عن الشعور الذي يراود المسلم اذ تتحقق امنيته دونه كثيرون ممن حج واعتمر ولمس الحجر الأسود. ومن هؤلاء ابن جبير الذي فعل ذلك في القرن السادس (الثاني عشر). فقد قال:

«فأقمنا بياض يوم الاربعاء المذكور مريحين بالقرين فلما حان العشي رحنا منه محرمين بعمره، فأسرينا ليلتنا تلك فكان وصولنا مع الفجر الى قريب الحرم. فنزلنا مرتقبين لانتشار الضوء ودخلنا مكة حرسها الله، في الساعة الاولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور وهو الرابع من شهر اغشت [آب]، على باب العمر وكان اسراؤنا تلك الليلة المذكورة والبدر قد القى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشفت عنا قناعه، والأصوات تصك الأذان، بالتلبية من كل مكان، والألسنة تضج بالدعاء، وتبتهل الى الله بالرغباء، فتارة تشتد بالتلبية، وأونة تتضرع بالأدعية، فيا لها ليلة كانت في الحسن بيضة العقر، فهي عروس ليالي العمر، وبكر بنيات الدهر. الى أن وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور حرم الله العظيم، ومبواً الخليل ابراهيم، فألفينا الكعبة البيت الحرام عروساً مزفوفة الى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن. فطفنا طواف القدوم ثم صلينا بالمقام الكريم وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتمزم وهو بين الحجر الأسود والباب، وهو موضع استجابة الدعوة. ودخلنا قبة زمزم وشربنا من مائها وهو لما شرب له كما قال ﷺ. ثم سعينا بين الصفا والمروة ثم حلقتنا واحللتنا فالحمد لله الذي كرمنا بالوفادة عليه، وجعلنا ممن انتهت الدعوة الابراهيمية اليه وهو حسبنا ونعم الوكيل»<sup>(١)</sup>.

وقد خُلف لنا المقدسي الجغرافي من اهل القرن الرابع (العاشر) انطباعاته عن

مكة فقال:

«مكة هي مصر هذا الاقليم قد خطت حول الكعبة في شعب واد. رأيت لها ثلاث نظائر: عمان بالشام واصطخر بفارس وقرية الحمراء بخراسان. بناؤها حجارة سود ملس وبيض ايضاً ويعلوها الآجر. كثيرة الاجنحة من خشب الساج وهي طبقات مبيضة نظيفة حارّة في الصيف الا ان ليها طيب. قد رفع الله عنهم مؤونة الدفاع وأراحهم من كلف الاصطلاء، وكلما نزل عن المسجد الحرام يسمّونه المسفلة وما ارتفع عنه المعلاة. وعرضها سعة الوادي والمسجد في ثلثي البلد الى المسفلة والكعبة، في وسطه وفيه طول باب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة عليه مصراعان ملبسان بصفائح الفضة قد طلّيت بالذهب قبالة المشرق»<sup>(٢)</sup>.

كان لمكة قبل الاسلام تاريخ وحروب يحتفظ التاريخ واصداؤه منها بالكثير. فهذا جلاء خزاعة لجرهم عنها يقول عنه الحارث بن عمرو:

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا	أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربّع واسطاً فجنوبه	الى السر من وادي الأراكة حاضر
بلى، نحن كنا أهلها فأبادنا	صروف الليالي والجدود العواثر
وأبدلنا ربي بها دار غريبة	بها الجوع باد والعدو المحاصر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت	نطوف بيباب البيت والخير ظاهر
فأخرجنا منها المليك بقدره،	كذلك ما بالناس تجري بالمقادر
فصرنا أحاديثا وكنا بغبطة،	كذلك غضتنا السنون الغواير
وبدلنا كعب بها دار غريبة	بها الذئب يعوي والعدو المكائر
فسحّت دموع العين تجري لبلدة	بها حرم آمن وفيها المشاعر

ولكن مكة دخلت التاريخ من الباب الواسع لما ان اوحى الله الى رسوله (ص) في غار حراء ان «اقرأ باسم ربك الاكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم»، فكان ذلك ايداناً بدعوة روحانية حملت انفاسها على ترتيل القرآن وأحاديث الرسول وسنته الى مشارق الأرض ومغاربها. وصار كل مسلم يتطلع شوقاً الى اليوم الذي يحقق فيه امنيته في الحج.

وقد خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً فلما خرج منها «وقف على الحزورة وقال: اني لأعلم انك احب البلاد الي، وانك احب ارض الله الى الله، ولولا ان المشركين اخرجوني منك ما خرجت». ويروى عن عائشة أنها قالت «لولا الهجرة لسكنت مكة، فإني لم أر السماء بمكان اقرب الى الارض بمكة، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة، ولم ار القمر بمكان احسن منه بمكة»<sup>(٣)</sup>.

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة في عام الفتح، كان ابن ام مكتوم آخذاً بزمام ناقته وهو يطوف، فقال:

«يا حبيباً مكة من وادي      ارض بهما اهلي وعمـ وادي  
ارض بهما ترسخ أوتادي      ارض بهما امشي بلا هادي»<sup>(٤)</sup>.

وهذا من أطف ما يمكن ان يقال تشوقاً الى الوطن.

وهذا التاريخ الطويل، مثل كل تاريخ طويل لأي مكان، تعتوره فترات متباينة. ولكن الشيء الذي تحتفظ به مكة، وتحتفظ به المدينة، مع كل تقلبات الاحوال، هو هذه المكانة الخاصة التي يكنها المسلم لهما، وهذا الاحترام الدائم لهما.

وقد مر بمكة، أو على الاصح بالحجاز كله، زمن عقب وفاة الرسول ﷺ كان الناس فيه يقصدون تلك الربوع دارسين متعرفين الى الكثير من شؤون الإسلام. وقد لخص الدكتور جبرائيل جبور ذلك بقوله:

«وقد قويت هذه الحركة الدينية ذلك العصر في مدينتين من مدن الحجاز، هما مكة والمدينة. فبعد ان مات النبي، وظل أكثر صحابته وتابعيهم في الحجاز، وبعد ان دفن في المدينة، وصارت هذه عاصمة لخلفائه الراشدين، واصبحت مكة قبلة المسلمين ومزار حجهم، وبعد ان تم القرآن زمن عثمان، وبعد ان اتسعت رقعة المملكة الاسلامية زمن بني امية ودخل الكثيرون من أهل الأمم المغلوبة في الإسلام، أخذ الكثيرون يفدون على الحجاز في طلب علوم هذا الدين الجديد، والتعرف الى اسباب التنزيل والظروف التي احاطت به في مكة والمدينة، وتفسير الآيات وجمع الحديث أو درسه واستنباط الاحكام وما الى هذه الأمور. وهل هناك من هم أدري بهذه المسائل من علماء مكة والمدينة الذين عاش النبي بين ظهرانيهم، وسمعوه يتلو القرآن عليهم، وسألوه عن الكثير من أمور دنياهم ودينهم؟ ولذلك فقد كانت مكة والمدينة أهم مركزين للحياة الدينية في ذلك العصر، وكان رجال هاتين المدينتين بوجه عام معلمي العالم الإسلامي آنئذ، ومفقي المسلمين في أمور دينهم. وقد ذكرت الكتب التاريخية والدينية اسماء الكثيرين من هؤلاء المعلمين العلماء من صحابة وتابعين، عرباً كانوا أو موالي، كعلي، وابن مسعود، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وعطاء ابن أبي رباح، وسليمان ابن يسار، وغيرهم. وقد نشأ عن هذا في المدينة ظهور مالك بن انس مؤسس المذهب المالكي في آخر القرن الأول، وقد أخذ عن ربيعة الرأي، وخلف لنا كتاب الموطأ الذي يعد من اقدم الكتب الإسلامية في الحديث والشرع.

«على انه كان الى جانب هذا كله حياة لهو وطرب وحياة شعر وادب. فقد كثر المال في ايدي المكيين والمدنيين، فعنوا بالحياة المترفة حيناً، وتمتعوا بما يرافق ذلك من لهو بريء وغزل لطيف ونسيب من السحر الحلال. وهذه مكة عرفت فيها حياة الدعابة والعبث واللهو مقرونة الى شيء من التحفظ والاحتياط. وكانت فيها الكعبة

ومواسم الحج وكانت اقرب الى حياة البادية من المدينة، فلم يقو العبث فيها ولم ينتشر المجون مثل انتشاره بالمدينة»<sup>(٥)</sup>.

وكان عمر بن ابي ربيعة وصحبه ورفاقه محور هذه الحياة اللاهية في مكة يوم استقر فيها وأخذ يطوف منها الى الطائف وغيرها. وحتى عمر أثر عليه جو مكة فتاب وتنسك في اخريات ايامه. ولعلّ المقطوعة التالية من خير ما يعبر عن شعوره نحو سابق ايامه ولاحق اوقاته. يقول عمر بن ابي ربيعة:

اصبح القلب قد صحا وأنايا	هجر اللهو والصبيا والريابا
كنت أهوى وصالها فتجنت	ذنب غيري فما تملّ العتابا
فتعمزيت عن هواها لرشدي	حين لاح القذال مني فشابا
بعثت للوصال نحوي وقالت	ان لله درّه كـيـف تابا
من رسول اليه يعلم حقاً	اجمع اليوم هجرة واجتتابا
ان لم اصرفه للذي قد هوينا	عن هواه فلا اسفغت شرابا
بعثت نحو عاشق غير سال	مع ثواب فلا عـدـمت ثوابا
بحديث فيه ملام لصب	موجع القلب عاشق فأجابا
فأتاها للحين يعدو سريعاً	وعصى في هوى الرياب الصحابا

ومكة نالت الكثير من الخير على ايدي حكام المسلمين وأثريائهم في العصور المختلفة. ومن ثم كثرت فيها المدارس والسقايات والربط والزوايا والمساجد. فكل مسلم يجب ان يتقرب الى الله تعالى عن طريق الخير للمسلمين أجمعين، ويجب ان يذكر في مكة والمدينة.

والرحالون يصفون ما يلقون في مكة والمدينة جملة وتفصيلاً. فالمساجد والمواكب وترتيب الحج والعمرة وما اليهما كلها موضحة مبينة. وعندنا منها الكثير الكثير. ولننتقل الساعة الى ابن جبير، رحالة القرن السادس (الثاني عشر) الذي أفرد جزءاً كبيراً من رحلته لمكة والمدينة، ولننقل عنه بعض ما يذكر. قال ابن جبير.

«ومن أغرب ما الفيناها فاستمتعنا باكله واجرينا الحديث باستطابته الرطب، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجره. يجنى ويؤكل وهو في نهاية من الطيب واللذابة. لا يسأم التفكه به، وإبانه عندهم عظيم يخرج الناس اليه كخروجهم إلى الضيعة او كخروج أهل المغرب لقراهم ايام نضج التين والعنب. ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع ...»

«وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ولين سعرها وانها خارقة للعوائد السالفة عندهم. كان سَوْمُ الحنطة اربعة أصواع بدينار مؤمني، وهي أوبتان من كيل مصر وجهاتها، والأوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربي. وهذا السعر في

بلد لا ضيعة فيه، ولا قوام معيشة لأهله الا بالميرة المجلوبة اليه، سعر لا خفاء بيمنه وبكرته، على كثرة المجاورين فيها في هذا العام وانجلاب الناس اليها وترادفهم عليها. فحدثنا غير واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة انهم لم يروا هذا الجمع بها قط ولا سمع بمثله فيها ... والله يجعله مرحوماً معصوماً بمنه ...

«ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة، عند مستهل كل شهر من شهور العام، يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضاً ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعالهم في الاعياد، هكذا دائماً ...

«فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار وذلك لأننا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الاربعاء، وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال، قد امتلأت هوداج مشدودة على الابل، مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته. فأخذوا في الخروج إلى التعميم ميقات المعتمرين، فسالت تلك الهوداج في أباطح مكة وشعابها، والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، وأشعرت بغير هدى بقلائد براقعة المنظر من الحرير وغيره، وربما فاضت الاستار التي على الهوداج حتى تسحب أذيالها في الأرض»<sup>(٦)</sup>.

وقد نقل الينا ابن بطوطة، رحالة القرن الثامن (الرابع عشر) غير منازع، صورة قلمية للصفاء والمروة هي من أطف ما كتب. قال ابن بطوطة:

«ومن باب الصفاء الذي هو أحد أبواب المسجد الحرام إلى الصفاء ست وسبعون خطوة، وسعة الصفاء سبع عشرة خطوة، وله أربع عشرة درجة، عليها كأنها مصطبة. وبين الصفاء والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة، منها من الصفاء إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة. وللمروة خمس درجات، وهي ذات قوس واحدة كبيرة. وسعة المروة سبع عشر خطوة. والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي مع الحرم، عن يسار الساعي إلى المروة. والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب عليّ من أبواب الحرم، احدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها. وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداً. وبين الصفاء والمروة مسيل فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه. والساعون بين الصفاء والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة. وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه، الا البزازون والعطاريون عند باب بني شيبه. وبين الصفاء والمروة دار العباس (رضي الله عنه)، وهي الآن رباط يسكنه المجاورون عمره الملك الناصر (رحمه الله). وبني أيضاً دار وضوء فيما بين الصفاء والمروة سنة ثمان وعشرون، وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكور، والآخر في سوق العطارين، وعليها ربع يسكنه خدامها»<sup>(٧)</sup>.

وقد ورد في كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لقاضي القضاة تقي الدين الفاسي وصف لمكة في العصور المتأخرة، جاء فيه قوله:

«مكة المشرفة بلدة مستطيلة كبيرة تسع من الخلائق ما لا يحصيهم إلا الله عزّ وجلّ في بطن واد مقدس والجبال محدقة بها كالسور لها. ولها مع ذلك ثلاثة أسوار سور من أعلاها ويعرف بسور باب المعلاة وفيه بابان أحدهما لا باب له ويكون في الغالب مسدوداً، وسوران في أسفلها أحدهما يعرف بسور باب الشبيكة وفيه باب كبير وخوخة صغيرة لا باب لها. والسور الآخر يعرف بسور باب الماجن ويعرف أيضاً بسور باب اليمن لأنه على طريق البرّ الى اليمن».

وعرفت مكة المدارس الكثيرة، كما عرفت العلماء المجاورين. وكم كان لهؤلاء أثر في الحياة العلمية في الحجاز وخارجه، إذ كان يقبل عليهم طلاب العلم من أنحاء العالم الإسلامي.

وقد نقل مؤرخ متأخر ان مكة كان فيها إحدى عشرة مدرسة كبرى منها مدرسة الملك الممدوح «جميل الصفات مغيث أهل الحرمين الشريفين جزيل الصلات مولانا السلطان الملك المنصور غياث الدين أبي المظفر أعظم شاه بن السلطان السعيد الشهيد اسكندر شاه بن السلطان شمس الدين المغفور صاحب بنجالة بلغه الله آماله وهي على الفقهاء من أصحاب المذاهب الأربعة. فكان المتولّي لشراء عرصتها وعمارتها ووقفها من يديه لذلك وغيره من مصالحتها التي تذكر، وفوض إليه في النظر، خادمه المكين وثقته الأمين الجانب العالي الافتخاري ياقوت السلطاني الغياثي لا زالت الخيرات على يديه جارية والنعم عليه متواليه. وكان الشراء لعرصتها ولنخيل وسقية توقف عليها باثني عشر ألف مثقال في أول شهر رمضان من سنة ثلاث عشرة وثمانمائة (١٤١١) ثم أعيد عقد البيع على ذلك في شهر شوال من السنة المذكورة لموجب اقتضاء الحال. وفي شهر رمضان المذكور ابتدى في هدم ما كان في موضعها من الأبنية وفيه أيضاً ابتدى في بنائها وفرغ من ذلك في آخر صفر سنة اربع عشرة وثمانمائة (١٤١١). وفي شهر ربيع من هذه السنة وجمادى الأولى فيها بيّض باطنها والصهريج الذي في جوفها وغالب ظاهرها وعمل فيها أيضاً كثير مما يطلب عمله في العمائر، وأحكمت فيها العمارة فاستحسنها ذوو البصائر. وكان وقفها في سابع عشر المحرم سنة اربع عشرة بعد الفراغ من عمارة سفنها وغالب علوها. وقرروا فقهاء اربعة من المدرسين وهم قضاة مكة الاربعة يومئذ وستين نقرأ من المتفقهين، عشرين من الشافعية وعشرين من الحنفية وعشرة من المالكية وعشرة من الحنابلة. وجعل الإيوان الشرقي منها محل تدريس الشافعية والحنفية والإيوان الغربي محل تدريس المالكية والحنابلة. وجعل الواقف المنازل التي تعلوها وفي إحدى عشرة خلوة محلاً

لسكنا جماعة من الفقراء خلا واحدة منها فإنه جعلها خاصاً للمدرسة المذكورة. وكان ابتداء التدريس فيها في يوم السبت سابع جمادى الآخرة سنة اربع عشرة وثمانماية (١٤١١) على الحالة التي قد قررت حين الوقف في تعيين أوقات التدريس بها في أيام الاسبوع. فكان تدريس الشافعي ضحوة يوم الاثنين وكان تدريس الحنفي في ضحوة يوم الأحد وضحوة يوم الاربعاء وضحوة يوم الخميس وكان تدريس المالكي فيما بين الظهر والعصر يوم السبت والأحد والاثنين وباشرت ذلك من حين ابتدائه، وكان تدريس الحنبلي فيما بين الظهر والعصر من يوم الاربعاء والخميس. ووقف الواقف المقدم ذكره على المدرسين والفقهاء والسكان بالمدرسة المذكورة وعلى مصالحتها ما اشتراه لذلك وذلك حديقتان وسقية ماء فأما الحديقتان فتعرف إحداهما بسلمة والأخرى بالحلّ وهما بالضيمة المعروفة بالركاني بوادي مرّ من أعمال مكة المشرفة، وأما سقية الماء فهي أربع وجاب من قرار عين الضيمة المذكورة وجبتان منها تعرفان بحسن منصور ليله ونهاره والوجبتان الأخيرتان تعرفان بحسن يحيى ليله ونهاره. وجعل الواقف المذكور الربيع المتحصّل من ذلك في كل سنة يقسم خمسة أقسام: قسم للمدرسين الاربعة بالسوية بينهم؛ وثلاثة أقسام للطلبة بالسوية بينهم؛ وقسم منه يقسم ثلاثة أقسام، قسم منه يصرف في مصالح المدرسة المذكورة من الزيت والماء وغير ذلك، والقسمان الآخران من هذا القسم يصرفان للسكان بالمدرسة المذكورة بالسوية بينهم».

ونالت مكة بيمارستانها، شأنها في ذلك شأن غيرها من المدن الاسلامية. ومن المعروف من اوقافها «البيمارستان المستصصري العباسي بالجانب الشمالي من المسجد الحرام وتاريخ وقفه سنة ثمان وعشرين وستمائة (١٢٣١) وعمّره في عصرنا الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة عمارته التي هو عليها الآن، وزاد فيه على ما كان عليه اولاً ايوانين: احدهما في جهته الشامية والآخر في جهته الغربية. وحدث فيه صهريجاً ورواقاً فوق الايوانين اللذين احدهما وفوق الايوان الشرقي الذي كان فيه من قبل وجدّد هو عمارته وفوق الموضع الذي فيه الشبّاكان المشرفان على المسجد الحرام. وأدخل فيه البير التي كانت يستقا منها للميضاة. ووقف جميع ما بناه وما يستحق منفعه في الموضع المذكور المدة التي يستحقها على الضعفاء والمجانين».

وقد وصف ابن ظهيرة المتأخر زمناً ما في المسجد الحرام من القبر قال:  
«فيه الآن قبتان كبيرتان متقاربتان جداً الى جانب بئر زمزم من جهة الشرق احدهما، وهي التي تلي زمزم، معدة لمصالح المسجد كالمصاحف والربعات الموقوفة وحفظ الفوانيس والشمع والشمعدانات النحاس والكراسي الخشب التي ترفع عليها الرباع وما أشبه ذلك من الأشياء الموقوفة لمصالح المسجد الحرام. والقبة الثانية هي سقاية العباس وخلفها محل لطيف مسقوف فيه آلات الوقادة كالعيدان التي تنزل بها

القناديل ويسرج بها وكالقصب المجوف الذي تطفئ به المصابيح، وبعض الشيء من الزيت الذي يحتاج لوقيد الشهر، وبعض شيء من القناديل الزجاج والحراريق»<sup>(٨)</sup>.  
وزوار مكة على العموم معجبون بأهل البلد الحرام، كثيرو التحدث عن فضائلهم. وهذا ابن بطوطة يقول في ذلك:

«ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والايثار للضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله يتبعه المساكين، فيعطي كل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة، فإنه يعطي ثلثها أو نصفها، طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة أن الايتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى، وهم يسمون القفة مكتلاً، فيأتي الرجل من أهل مكة الى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي، فيجعل الحبوب في احدى قفتيه، واللحم والخضر في الاخرى، ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهياً له طعامه منها، ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته، فلا يذكر ان أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه. ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس. وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً، ويكتحلون، ويكثرن السواك بعيان الأراك الاخضر. ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى إن احداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عباقاً»<sup>(٩)</sup>.

ثمة أبيات من قصيدة طويلة لشوقي، حربية بأن نشرك القراء بها، لمناسبة الحديث عن مكة المكرمة. قال:

أشرق النور في العوالم لما	بشرتها بأحمد الانبياء
باليتميم الأمي والبشر المو	حى اليه العلوم والأسماء
قوة الله ان تولت ضعيفاً	تعبت في مراسه الأقوياء
أشرف المرسلين، آيته النطق	مبيناً، وقومه الفصحاء
لم يفه بالنوافع الغرّ حتى	سبق الخلق نحوه البلفاء
وأتته العقول منقادة اللب	ولبى الأعوان والنصراء
جاء للناس، والسرائر فوضى	لم يؤلف شتاتهن لواء



وحمى الله مستباح وشرع الله  
 فلجبرئيل جيئة ورواح  
 يحسب الأفق في جناحيه نور  
 والحق والصواب وراء  
 وهبوط إلى الثرى وارتقاء  
 سلبته النجوم والجوزاء.

## الهوامش

- (١) ابن جبير: الرحلة، ليدن، بريل، ١٩٠٧، ص ٥٨.
- (٢) المقدسي، ص ٧١.
- (٣) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ١٨٥.
- (٤) نفس المكان، ج ٥، ص ١٨٣.
- (٥) جبور، جبرائيل: عمر بن أبي ربيعة، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٥، ج ١، ص ١٣٨-١٣٩.
- (٦) ابن جبير، ص ٩٩-١٠٧.
- (٧) ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة، القاهرة، ١٩٣٤، ص ١١٣.
- (٨) تواريخ مكة، الجزء الثاني من صفحة ١٠٥ إلى صفحة ١٠٧.
- (٩) ابن بطوطة، الجزء الأول ص ٣٤٤ إلى ٣٤٧.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية